الفصل الأول

فى معنى النظرية

- النظرية والواقع.
- تعريف النظرية.
- بناء النظرية.
- صفات النظرية.
- أنماط النظرية.
- ظروف التنظير.

obeikan.com

فى معنى النظرية

النظرية والواقع

يذهب كثير من الناس إلى القول بأن هناك هوة سحيقة بين النظرية Theory والواقع، إذ يعتبر الكثيرون أن النظرية شيء تجريدى ومبهم وغامض، بل وحديث يتكلم فيه الفلاسفة، ومن ثَمَّ فالنظرية ليس لها علاقة بالواقع، ذلك الواقع الذى ينظر إليه الناس على أنه عملى وجزء من الحقيقة، ويختص بشئون الحياة اليومية.

هذه الفكرة خاطئة من أساسها، وفيها شيء كثير من التجنى على الحقيقة، فإذا نظرنا إلى حقيقة العلم ومضمونه نجد أن العلم ماهو إلا منهج لتسجيل الخبرات البشرية والرابط على أسس عقلية بين عناصرها، وتعتبر النظرية مجموعة من هذه الروابط العقلية تستخذم لتفسير وشرح كيف تعمل ظاهرة معينة.

بل ربما كان الربط بين الظواهر هو المهمة الأولى للعلم، فإنه لايقتصر على جعل معرفتنا المتشعبة قابلة للتعامل معها بطريقة منظمة، بل تمتد إلى تنمية معرفتنا الحاضرة والمستقبلة، وماهوأهم من ذلك أنها تكشف عن وحدة عميقة وراء خبرتنا، التى تظهر لأول وهلة أنها متفرقة أو متباينة، بل وكثيراً مايضحى العلماء بآرائهم السابقة من أجل تحقيق الربط العقلى بين ملاحظاتهم، فهم يخشون الأشياء المبعثرة أكثر من خشيتهم للأشياء المبهمة، بل عادة ما ينصرف العلماء حتى عن مشاهدة واضحة من أجل إنقاذ ارتباط عقلى من الانهيار[1].

والمقصود بالربط العقلى Rational correIation هو عملية التفسير، أو يعنى العلاقة المنطقية بين الظاهرة موضوع البحث وبين ظاهرة أخرى أو مجموعة من الظواهر سواء أكان هذا الربط مباشراً أو غير مباشر، فمحاولة الربط بين الظواهر كما يمارسها العلم تقوم على أسس عقلية كالمقارنة، واستنباط أوجه الشبه الشكلية، وإمكان القيام بعدد من المشاهدات والتجارب للتأكد من ثبات الارتباط، وكذلك يلاحظ أن الربط العقلى

(1) Dingle, Herbert: "Science and Human Experiences pp. 14-16.

أيضا يمثل الأساس فى قدرتنا على التنبـؤ، ذلك أننا إذا استطعنا أن نكشف عن ارتباط دائم بين أ،ب فإننا كلما شاهدنا أ أمكننا أن نتنبأ بحدوث ب.

وهكذا نرى أن النظرية هى شىء لصيق بالواقع العملى والحياة اليومية، إذ من خلال ماسبق تمثل النظرية الأساس لكل أجزاء المعرفة الإنسانية، وأساس للتفسير اليومى الذى يقوم به الفرد للظواهر الاجتماعـية والطبيعية، إن مثل هذه التفسيرات اليـومية متضمنة فى الملاحظات العملية، أى فيما نلاحظه يوميّـاً ونحاول تفسيره أى فهمه، ثم إذا نظرنا إلى عـملية التنظيـر Theorizing نفـسهـا وهى ما نعنـى به «تكوين وتحسين الشـروح التفسيرية» نجد أنها عملية يقوم بها الإنسان بصفة دائمة ذلك أنها عملية أساسية للمعرفة العملية والتأثير المتبادل الاجتماعى أى التفاعل الاجتماعى اليومى.

وهكذا سواء يحاول عالـم الطبيعة شرح بناء خلية، أو أب يحـاول مساعدة ابنه فى فهم لماذا لا يجب أن يكذب أو لماذا يجب أن لا يغش، ففى كل حالة من هذه الحـالات يحـاول الأب أن يشـرح ويفـسـر مـايمكن أن يحـدث من اضطراب فى العلاقـات الاجتمـاعية نتيـجة للكذب أو الغش، فـالأب هنا يكون قائما بعـملية التنظير «تكوين وتحسين الشروح التفسيـرية». فالنظرية إذن متضمنة كل هذا بطريقة ما، بمعنى مجموعة من العلاقات المترابطة عقليا بين بعض خبراتنا البشرية.

ولهذا يمكن أن نلاحظ أن النظرية متضمنة فى العلاقات المتبادلة بين الأشخاص، وفى بناء لغـة الإنسان، وفى المجهـودات العلميـة الإنسانية، ذلـك أن الناس عادة يميلون إلى تعليل وتفسير بيئتهم الاجتماعية والطبيعية.

وبهذا الأسلوب يرتبط الفرد بالعالم الطبيعى والمجتـمع من خلال مجموعة مركبة من المقولات التى تحاول تفـسير كيف تعمل الظواهر، وهكذا سـواء أكنا نتعامل مع أى جانب من جوانب الحياة طبيعى أو اجتماعى، فنحن نجد مجموعة من التفسيرات المحددة فى داخل متن وضعية اجتماعية معينة، أى ثقافة اجتماعية معينة، التى تعلل وتوضح وتفسـر مايحدث، فتـفسير ظاهرة المطر فـى ثقافة بدائية يخـتلف تمامًا عن تفسير نفس الظاهـرة فى ثقافتنا، وبالمثل فى المجال الاجتماعى فـنظرية فى الاقتصاد فى ثقافة غربية أو شيوعية تختلف تفسيراتها عن نظرية فى ثقافة إسلامية.

تعريف النظرية

تقدم النظرية الاجتماعية مجموعة من الافتراضات التى تهتم بالمجتمع والظواهر الاجتماعيـة، على أساس أن المجتمع وظواهره له واقعه الاجتمـاعى المنفصل عما عداه من الظواهر، ولقد بذل دوركايم Durkhiem جهدًا كبيرًا من أجل تحقيق هذا الهدف، وأصبحت هذه الحقيقة مسلمة يأخذ بها كل علماء الاجتماع[1].

ومن ثَمَّ فالنظريـة الاجتمـاعية تقف فى تضـاد مع أنساق التفكيـر المبكرة التى كانت تتسـم بالأسطورة والتيولوجيـة والطبيعية عنـد شرحها وتفسـيرها للظواهر الاجتـماعـية، فـالنظرية الاجتـماعـية الحـديثة تقـوم على أساس وجـود النسق الاجتماعى كذات مستقلة فى تعارض مع الظواهر الميتافيزيقية أو التيولوجية، ومن ثَمَّ يمكن اعتـبار أن النظرية الاجـتماعـية نشـأت لتبرز تطور ونمو نـسق جديد من التفكير الذى حلت فيه فكرة واقعية المجتمع والحقيـقة الاجتماعية محل التفسيرات الميتافيزيـقية، التى كانت سائدة حتى منتصف القرن التـاسع عشر، ومن ثَمَّ صاغ المنظرون Theorists مفـاهيما عن الحـقيقـة الاجتمـاعية واسـتخدمـوها فى شرح الظاهرات الاجتماعية.

وهكذا أصحـبت النظريات الاجتماعـية تقدم مفـاهيما عن النظام الاجتـماعى والحالة التى فيها يتغـير، أى تقدم مفاهيما عن بناء المجتمع والعمليـات الاجتماعية Social Process، فإذا كـانت النظرية هى مجمـوعة من الافتراضـات التى تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر الاجتماعية.

فطبقًا لذلك تصبح النظرية الاجتماعية عبارة عن قضايا تجريدية ومنطقية مصاغة فى شكل مفاهيم اجتماعية.

ولكن ليست النظرية الاجتـماعية هى مجرد مـجموعة من المفاهيم الاجتـماعية المتراصـة عشوائـيّاً، ولكن عندما يكتـشف المنظر Theorist بعض المفاهيم النظرية

(١) إميل دوركايم «قـواعد المنهج فى علم الاجتـماع» ترجمة دكـتور محمود قـاسم- مكتبة النهضـة المصرية ١٩٥٠ ص ٣١: ٤٨.

Theoretical concept يتـــجـــه إلـى الربط بين اثـنين أو أكـــثـــر فى شـكل تقاريرStatements عن الحياة الاجتماعية.

ذلك أنه مهـما حاولنا ومهـما بلغنا من الدقة فى وصف ظاهرة اجـتماعية بمـفهوم علمى، إلا أننا لا نسـتطيع استخـدام ذلك المفهـوم للشرح أو التنبؤ. ولكى نـستطيع الشرح أؤ التنبؤ نحن فى حاجة إلى تقرير نظرى Theoretical statement، أى ارتباط بين اثنين وأكثر من المـفاهيم، فمثلاً بمجـرد أن نفترض Hypothesize «أنه كلما زادت درجة تركيـز التنظيم كلما زادت الكفاءة الإنتـاجية» [١] على حد قول فـبر، أو مثلاً «كلما زادت كـثافة السكان زاد تقسـيم العمل» [٢] على حد قول دوركـيم، أو «كلما زادت حدة التـدرج الطبقى كلما زاد الصـراع» على حد قول مـاركس، أو «كلما زاد الصراع زاد التكامل الاجـتماعى» على حد قـول سمل Simmel ونلاحظ أنه فى هذه التقارير نحن تحركنا من مجرد الوصف إلى شكل من أشكال التنبؤ.

يلاحظ أن هناك عدد من الأسـماء والمفاهيم التى تشيع الاضطراب والحـيرة حول اصطلاح التقـرير النظرى من بين تلك المصطلحـات الفرض، Hypothesis،والقضـية Proposition، والبديهية Axiom، مسلمة postulat، وافتراض Assumption، وربط Corollary، وفى الحقيقة أن كل منهـم له وقع ملائم فى المعنى، فكل منهم يشير إلى نوع معين من التقارير النظرية، ولكن نوع دائما أبدا غـير واضح، فمثلاً أشار زتربرج Zetterberg[٣] إلى أن الفرض هو تقرير نظرى غير مثبت، بينما القضية مثبتة ومبرهنة بالدلائل.

وبالمثل تعمل كـثير من المفـاهيم على إبهام وغمـوض اصطلاح النظرية، ذلك أن هذه المفاهيم لها علاقة بالموضوع، ولكن ينقصها قوة التفسير، مما يجعل الأمر يختلط على كثيـر من الدارسين. وأهم تلك المفاهيم التى لها علاقـة بالموضوع هى الوصف

(1) Weber, Max: "The Theory of Social and Economic Organization trans. by Henderson and parsons Glencoe, Free press. 1947.p.377.

(2) Durkhiem, E.: "The Division of Labor in Society" trans. by Simpson, Glencoe III, Free press, 1933. p.256-282.

(3) Zetterberg, Hans L. "Social Theory and Social practice" Totowa, New J., Bedminster press. 1963.

description، والتنميط Typology، والنموذج Model، والتنبؤ prediction.

ومما يزيد الأمر صعوبة أنه من الصعب أن نجد تعريفًا للنظرية قد اتفق عليه علماء الاجتماع. ومن ثَمَّ أصبح من الضرورى التمييز بين تلك المفاهيم السابق ذكرها حتى يتضح لنا تمامًا معنى النظرية، وإبراز الصفات الأساسية للنظرية. الوظيفة الأولى والأساسية لأى نظرية هى محاولة شرح أو تفسير علاقة الظاهرة موضوع البحث وظاهرة أو ظواهر أخرى، أى أن الوظيفة التفسيرية هى التى تميز النظرية عن تلك المفاهيم التى لها علاقة بموضوعنا، ولكن ليس لها صفة تفسيرية.

فمثلاً لو أخذنا مفهوم الوصف فإنه يشير إلى تبيان صفات ظاهرة معينة دون أن يفسر وجودها أو تغيرها، فوصف لثقافة فرعية معينة مثل زنوج وسط أفريقيا لايفسر علة وجود مثل هذه الثقافة، ولا يشرح التطور والتغير فى تلك الجماعة.

وأيضا يقوم التنميط مجموعة من المميزات يقال إنها تشير إلى ظاهرة معينة أو أنها صورة طبق الأصل منها. فمثلاً تنميط للأسرة كأسرة نووية أو ممتدة لا يشرح أو يعلل شيئًا فى داخل مثل هذه الوحدة الاجتماعية.

وكذلك النموذج، وإن كان ينظر إليه فى بعض الأحيان كالتنميط، فإنه عادة يقوم أساس ملاحظات تجريبية، فمثلاً نموذج المجتمع الصناعى المتقدم فى المستقبل يمكن أن يكون مفيدًا، ويمكن أن يكون مقامًا على أساس بيانات تجريبية، ولكن لا يفسر التطور أو يفسر بناء ذلك المجتمع أو العمليات الداخلية فى مثل هذا المجتمع أى النموذج المقترح، أى أنه ينقصه القوة التفسيرية.

وبالمثل التنبؤ، بمعنى القابلية للتنبؤ، مثلاً أين سيقف فرد ما فيما يختص بالمتغير «أ» عن طريق معرفة موقعه على المتغير «ب» هذا التنبؤ أقيم على أساس علاقات تجريبية سابقة لوحظت بين هذين المتغيرين. فمثلاً يمكن لمدرس أن يكون قادرًا على التنبؤ بدرجات طلابه من خلال منجزاتهم على مدار العام الدراسى، بل وبدرجة عالية من الصحة، دون أن يكون هذا المدرس قادرًا على تفسير العلاقات، أى لا يستطيع هذا المدرس أن يفسر مثلاً حصول طالب معين على درجة عالية فى مادة معينة، وتزداد صعوبة التفسير إذا كان التنبؤ يتعلق بحصول طالب على درجة عالية فى مادة وحصل فى نفس الوقت على درجة منخفضة فى مادة أخرى. ومن هذا

يتضح أنه مهما كانت الارتباطات التجريبية عالية، فإن قدرة هذا المدرس على تفسير هذه العلاقات قد تكون فى أدنى صورها. وهكذا قد يكون الباحث قادراً على تنمية مستويات أعلى من احتمالات التنبـؤ دون أن يكون لديه قدرة تفسير هذه العلاقات. ومن ثَمَّ يمكن أن يكون لدينا قدرة تنبؤية عالية وفى نفس الوقت قدرة تفسيرية أقل، والعكس صحـيح، وهكذا يمكن القول أن التنبـؤ لايقدم بأى حال نظرية أو شـرحًا لها. فالوقائع لا تتكلم عن نفسها، ولهذا فلابد من شرحها أو تفسيرها.

وإن كانت كل هذه المصطلحات أو المفاهيـم التى سبق ذكرها هى أجزاء من بناء النظرية فإنها لاتـفسر الظواهر التى تشير إليـها. إن تلك القوة التفـسيرية هى التى تعتـبر الخاصـية الأساسـية للنظرية، فـالوظيفة الرئيـسية للنظريـة هى تلك القدرة التفسيرية التى تملكها.

هذه القدرة التفـسيرية هى التى تميز النظرية أو القانون سـواء فى مجال الظواهر الاجتمـاعية أو النفسـية أو الطبيعـية، فيذهب كـارل بيرسون K. Pearson إلى أن «القانون العلـمى ليس مجرد تتـابع للظواهر أو الانطباعـات الحسيـة أى أن قوانين الطبيعة ليست هى نفسها الظواهر الطبيعية فى تتابعها كما أنها ليست مجرد وصف لهذه الظواهر، فـقد أصف كـثيراً من الظواهر دون أن يتـضمن حـديثى أى قانون علمى، ولكن إذا أردت جعل حديثى يتضـمن الحديث عن قانون علمى، فعلىَّ أن أعقـد مقارنات بين عدة نظم لتـتابع الظواهر والانطباعـات الحسية، ثم أنتـقل بعد ذلك إلى عمليات التصنيف Classification والتعميم Generalization، فإذا ذكرنا التصنيف والتعميم، ذلك يعنى ضرورة الاستعانة بمفاهيم من صنع العقل البشرى. ومن ثَمَّ فـقوانين الطبـيعة تـتضمن الـربط بين الانطباعـات الحسـية المباشـرة وبين المفاهيم، وبدون الربط بين هذين الطرفين فلا وجود لهذه القوانين[1].

ونرى ذلك واضحًا فى كثير من تعريفات عـلماء الاجتماع، فمثلاً يذهب بلالوك Blalock فى كتابه بناء النظرية إلى أن «النظرية لاتتكون كليـة من جداول من مفاهيم وتنميطات ولكن لابد أن تحتوى قانونًا مثل قضايا تربط بين مفاهيم أو متغيرات سواء

(1) pearson, Karl: "Grammar of Science" Chap. 4.

اثنين أو أكثر فى وقت واحد» [١]. كما يذهب جبس Cibbs فى كتابه بناء النظرية الاجتماعية إلى أن «النظرية هى مجموعة من الشروح أو البيانات المرتبطة منطقيّاً فى شكل تحقيقات أمبيريقية حول خواص فئات لانهائية من الوقائع أو الأشياء» [٢]. كما يذهب رينولدز Reynolds إلى أن «استعمال مصطلح نظرية يشير إلى حالات تجريدية تعتبر جزءا من المعرفة العلمية سواء أكانت مجموعة من القوانين أو المسلمات أو أشكال العمليات السببية»[٣]. وكذلك يذهب ويلر Willer إلى أن «النظرية هى مجموعة من العلاقات المتكاملة ذات مستوى معين من الصدق»[٤].

يلاحظ أن هؤلاء المؤلفين يركزون على نواحى مختلفة من النظرية، إلا أنه يمكن ملاحظ عدد من الصفات العامة فى أقوالهم تلك مثل التجريد والمنطق، والقضايا، والشرح، والعلاقات، والمقبولة من المجتمع العلمى. وعند هذه النقطة يمكن وضع تعريفنا للنظرية وهو أنها «مجموعة من القضايا التجريدية والمنطقية التى تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر موضع الدراسة».

ومما سبق يمكن ملاحظة أن أساس أى نظرية هو ذلك النموذج الذى تقدمه كتفسير للحقيقة الاجتماعية أو الطبيعية. وعادة مايتكون هذا النموذج من عنصرين:

١- مفهوم Concept عن الظاهرة المشروعة، مثلاً يمكن النظر إلى المجتمع كمجموعة من النظم المتساندة.

٢- افتراضات Assumptions توضح العلاقات السببية، مثل النظرة التى تعتبر أن البناء الاجتماعى يتطور فى استجابة لحاجات النسق أو الوظائف الأساسية للمجتمع.

***

(1) Blalock, H.M: "Theory Construction, From Verbal to mathematical Formulations" prentic-Hall, Englwood Cliffs, N.J. 1969. p.2.

(2) Gibbs,J.: "Sociological Theory Construction" Dryden press, New York,1972.p.5.

(3) Reynolds, p.D.: "A primer in Theory Construction" Bobbs-Merrill, Indianapolis, 1971. p.11.

(4) Willer, D.: "Scientific. Sociology, Theory and Method" prentic-Hall Englewood Cliffs, New Jersy, 1967.p.9.

obeikan.com

بناء النظرية

أولاً: صفات البناء

١- نموذج النظرية:

الأساس لأى نظرية هو النموذج الذى تبرزه، والذى عرفنا أنه يتركب من صياغة مفاهيم معينة عن الظواهر المشروحة، والعلاقات التفسيرية الهامة التى توضح وتعلل حالة الظواهر عند عملها وتفاعلها، وهكذا تكون الظواهر موضع البحث قد تم تعريفها من خلال مفاهيم محددة، وفى نفس الوقت وضعت الافتراضات عن وجود علاقات سببية، وتستخدم محتويات هذه العلاقات فى شرح الظواهر موضع الدراسة. وإذا نمى نموذج بدرجة عالية وراء مستوى الفروض العامة البسيطة، قد يصبح نموذجًا من العلاقات التى تمثل الأساس لبناء نظرية، وفيما يلى أمثلة على النماذج النظرية «إطار العمل الوظيفى البنائى The Structure- Functional Framework اتجاه الصراع The Conflict Oriantation.

٢- المفاهيم:

يتضمن أى نموذج مفاهيم معينة، وهى عبارة عن اسم أو عنوان لفئة من الظواهر مثل «الشخصية personality، والطبقة الاجتماعية Social Class، وتغير اجتماعى Social Change»، وهذ ه المفاهيم تحتاج إلى عناية فائقة فى تحديدها، وأن توضح بدقة علاقاتها بالنموذج الموضوع.

٣- العلاقات المنطقية بين المفاهيم:

تحتاج العلاقات المنطقية بين تلك المفاهيم إلى التأكيد، بمعنى أن تكون مترابطة منطقياً ونظرياً، ومستوى وشكل تلك العلاقات يميل إلى التباين، فقد تكون بديهيات أى مسلمات Axioms، وهى تعتبر قضايا يفترض أنها صادقة بذاتها، وقضايا Propositions وهى عبارة عن تقارير عن العلاقات تكون مشتقة من مسلمات أو فروض Hypotheses أى تقارير Statements من العلاقات بين المفاهيم فى شكلها أثناء العمل، بمعنى محتوياتها التجريبية.

obeikan.com

وقد تكون تلك العلاقات المنطقية بين المفاهيم، إيجابية أو سلبية أو مستقلة كل عن الأخرى.

وأخيراً يعتمد بناء النظرية على ماتحتويه من أنواع حالات العلاقات، وعلاقة كل منها بالأخرى، وهكذا يمكن أن تكون نظرية مسلمية Axiomatic فى بنائها «مجموعة من القضايا المحددة»، أو يأخذ بناء النظرية شكل قضايا «أى مجموعة من القضايا مشتقة من مسلمة».

ويلاحظ أنه لايمكن النظر إلى مجموعة من الفروض المترابطة كنظرية عند غياب مسلماتها وقضاياها الأساسية، إذ تكون غير كاملة.

٤- الإجراءات:

ومن ثَمَّ تحتاج المفاهيم وحالات العلاقات إلى أن تعرف تجريبياً أو إجرائياً فى شكل متغيرات Variables، مثل اختبارات الشخصية، ومقاييس الطبقات الاجتماعية، والمقاييس الديموجرافية لنسق اجتماعى، ومقاييس معدلات الحراك الاجتماعى. والمقاييس السوسيو اقتصادية للتغير الاجتماعى، والبناء التنظيمى للنظم. وعادة يتضمن كل متغير عدد من المحتويات التجريبية يحددها ويعرفها نوع أداة البحث مثل علامات على فقرات خاصة من استمارة البحث التى اختارها الباحث.

٥- المنهج:

وتتركب المرحلة التالية من منهج تجريبى لاختبار الفروض، بمعنى اختبار العلاقات التى افترض الباحث وجودها بين المتغيرات والمحتويات. وقد يتكون هذا المنهج من مسح للرأى العام، أو ملاحظة مشاركة، وبيانات مقابلة، أو المعدلات الرياضية للبيانات السكانية، أو تجارب الجماعات الصغيرة.

ويلاحظ أن ذلك المنهج يميله إلى حد بعيد نوع المتغيرات المشتقة من بناء النظرية ويحدده ذلك البناء، ولا يمليه أى فكرة مسبقة تم تكوينها عن المنهج.

وإيا كان المنهج المستخدم فإن فاعليته مقيدة بأنواع العينات المتاحة، وقدرة الباحث على قيادة البحث، وأيضا أخطاء القياس وخطأ تحليل البيانات.

obeikan.com

٦- تحليل البيانات:

فإذا ماجمعت البيانات فإنها تحتاج إلى تحليل فى ضوء الفروض الأساسية فى النظرية. وعادة هذا التحليل يتركب من استخدام التكنيك الإحصائى ليبين مستويات الاتفاقات، والدلالات الإحصائية. أما إذا استخدمت بسذاجة أو أسيئ استخدامها، فهذه الاختبارات قد تؤدى إلى أخطاء بالغة.

ويلاحظ أن عملية تحليل البيانات تعتمد كلية على نوع العينات والبيانات المجموعة.

٧- تفسير البيانات:

عند إتمام تحليل البيانات، فإنه على الباحث التقدم إلى تفسير نتائج البيانات فى ضوء بناء نظريته، من ناحية نموذجها الأساسى ومسلماتها وقضاياها وفروضها.

وبما أن المناهج والاختبارات التجريبية وتحليل البيانات تقدم فقط اختبارات غير مباشرة لأسس بناء النظرية، فإن الباحث يحتاج إلى أن يكون شديد الحذر فى استخراج النتائج من بيانات محدودة، أنه من السذاجة الإفراط فى تقدير الأهمية النظرية لأى مجموعة من البيانات التجريبية. مهما كان اتساع مجالها.

٨- تقييم النظرية:

وأخيراً يبحث المنظر «الباحث» عن تقييم النظرية فى ضوء معيارين أساسيين:

(أ) كفاءة ومجال ومنطق بنائها النظرى.

(ب) مستوى قابليتها للاختبار والتنبؤ والدقة عندما تخضع للاختبار التجريبى. عند هذه النقطة يكون هناك عدد من البدائل الممكنة.

أما شطب النظرية كلية، أو تعديل نموذجها الأساسى أو تنمية مسلمات وقضايا وفروض أكثر، أو استخدام منهج جديد.

وليس معنى ذلك أن ييأس المنظر ولكن عليه أن يعرف أن عملية التنظير هى عملية مستمرة وديناميكية، وتتكون من تغيير وتعديل مستمر.

obeikan.com

ثانيًا: عملية إنشاء النظرية

١- الخطوة الأولى هى تحديد العلاقات العلية التى تتميزبها النظرية، فنموذج النظرية يجب أن يكون واضحًا بأكبر قدر ممكن، وخاصة العلاقات العلية التى يتضمنها النموذج والتى يفترض أنها أدوات التفسير. ومن ثَمِّ يعتبر تحديد هذا النموذج من العلاقات المفترضة «مسلمات- قضايا» هو الخطوة الأساسية والكبرى فى عملية التنظير.

٢- الخطوة الثانية تتضمن تعريف المفاهيم فى النموذج تعريفًا كاملاً بقدر الإمكان «التعريفات الإجرائية». ويلاحظ أنه كلما كانت معانى المفاهيم تميل إلى أن تكون مفترضة أكثر منها معرفة ومحددة بدقة، تقود مثل هذه الافتراضات إلى الغموض وربما الفوضى.

٣- العلاقات المنطقية بين تلك المفاهيم التى يستخدمها نموذج النظرية تحتاج إلى تحديد فى شكل مسلمات أو قضايا أى تقارير Statements.

٤- ثم تستخدم المفاهيم فى شكل متغيرات، والعلاقات المنطقية بين هذه المتغيرات تستنبط من المسلمات والقضايا فى شكل فروض.

٥- ثم يستخدم منهج ملائم لهذه المتغيرات لاختبار الفروض من خلال بيانات تجريبية ويستخدم هذا المنهج بدقة بأكبر قدر ممكن لاختبار الفروض تجريبيّاً.

٦- ثم تحلل البيانات طبقًا للأساليب الفنية والإحصائية.

٧- فإذا ماحللت، يحتاج المنظر إلى تفسير أهمية النتائج بالنسبة إلى النظرية التى أنشأها. فقد تفسر النظرية على أسس من هذه النتائج، أو بالنسبة إليها، وذلك يعتمد على أسلوب إنشاء النظرية.

٨- وأخيراً بعد إتمام الخطوات السابقة، يحاول المنظر تقييم النظرية إما على أساس أرضية نظرية أو أرضية تجريبية.

***

obeikan.com

صفات النظرية

يتباين علماء الاجتماع فى درجة نظرتهم إلى النظرية الاجتماعية باعتبار أنها لارسمية وبالضرورة وصفية، أو رسمية وبالضرورة تفسيرية. فمثلاً روبرت نسبت R, Nisbet يرى علم الاجتماع على أنه «شكل من الفن Art form والذى يصنع تقدمه العظيم خلال عمليات خلاقة والمواضيع التى تشارك بدرجة كبيرة مع الفن»[١].

ويتبنى س. رايت ميلز C.Wright Mills نظرة مشابهة فى وصفه الرجل الحرفى الكلاسيكى Classic craftsman، الذى يستخدم الخيال السيسولوجى Sociological Imagination، ومتأرجحا بين مفاهيم الوحدات الكبرى Macroscopic conceptions، والعروض التفصيلية، ومركزا على بناء المجتمع ككل، وتطوره التاريخى، وأنماط التفضيل عند الناس والسائدة فى المجتمع فى مرحلة معينة من تطوره [٢].

ويذهب دون مارتندال Don Martindale إلى أن علم الاجتماع هو «علم الحياة الداخلية للإنسان[٣]، بينما نقولا تيماشيف N. Timasheff فى كتابه المشهور عن النظريات يقرر أن «علم الاجتماع يعنى دراسة المجتمع على مستوى عال جداً من التعميم والتجريد»[٤].

أما روبرت ميرتون R.K Merton فهو يحاول أن يعبر تلك الفجوة بين العمومية المفرطة والمستويات المحددة للتحليل باستخدام نظريات متوسطة المجال

(1) Nisbet, R.A. : "Sociology as an Art Form" pacific Sociological Review, 5:67- 74, 1962.

(2) C.W.Mills: "The Sociological Imagination" Oxford Universtity press, Bew York, 1959.

(3) Martindale, D.: "The Nature and Types of Sociological Theory." Houghton Mifflin, Boston, 1960.p.3.

(4) Timasheff, N.S.: "Sociological Theory,its Nature and Crowth" 3d ed, Random House, Bew York, 1967,p.4.

obeikan.com

Middle - Range theories ويعنى بذلك «مجموعات محددة من الافتراضات التى منها يشق منطقـياً فروضـا خاصة معـينة وبعد ذلك تثـبت وتؤيد البحث التجريبى». والعمل عند مستوى تحليل الجمـاعة «مثل الجماعة المرجعية ونظرية الدور». تحاول نظرية المـدى المتوسط ربط الفرد بالبنـاء الاجتمـاعى من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية للفرد [١].

فالنظرية الاجتماعية طبقًا لهـذه النظرية تركز فى التحليل على الجماعة أكثر منه سواء على المستوى المجتمعى أو المستوى الفردى.

وهناك من علماء الاجتـماع من يتشدد فى الشكل العلمى لـلنظرية. ومن أكثر هؤلاء العلماء تشدداً جورج هامانزG.Homan، وزيتربرج H.L. Zetterberg.

فعند هـومانز[٢] تتـركب النظرية من جدول من المفـاهيم ومجـموعـة قضـايا استدلالية، بعضا منها متلائم مع التجارب ومن ثَمِّ يمكن اختبارها، ويختم هومانز حـديثـــه بقـوله «هـناك نظريات قليـلة فى علم الاجـتـــمـاع. . .التى تـنفق مع التعـريف. . .عمـا يجب أن تكون عليه النظرية، سـواء أكنا نتعـامل مع نظريات مـعيـارية أو لا معـيارية أو بنائيـة أو وظيفـية أو سـيكولوجـية. وتعـتبـر النظرية الاجتماعية عند هومانز فضفاضة جداً وتحتاج إلى صياغة حتى يمكن أن تكون أهلاً لتسمى نظرية علمية.

أما زيتربرج فـيعرض وجهة نظر يحـاول أن تكون ذات شكل رسمى Formal، ومركـزا على التحليل المنظم لأنماط العـلاقات بين المتغـيرات والقـضايا فى شكل استدلال من مسلمات، دراسته الاستـدلالية من المسلمات للنظرية الاجتماعية وفى معـيتـها قـواعد معـينة للاشتـقاق المنطقى مـن القضايا يـقدم لنا زيتـربرج إحدى الدراسـات الأكثـر رسمـية للنظرية، وقـد تتبـعه كـثيـرون من علماء الاجـتمـاع المعاصـرين، يحاولون الارتقاء بالنظرية الاجـتماعـية إلى أعلى درجات العلمـية، أمثال بلالوك وجبس.

---

(1) Nerton, R,K. : "On Theorerical Sociology" Free press, New York, 1967.

(2) Homans. G : "Contemporary. Theory in Sociology" in :Hand Book of Modern Sociology" edit by Faris, Robert. Rand McNally and Co. Chicago. 1964. p.951- 977.

من المناقشة السابقة يتضح لنا أن هناك مجال واسع من حيث الآراء المهتمة بصفات وخصائص النظرية الاجتماعية، ففى الطرف النهائى للنظرة اللارسمية نجد مليز ونسبت، اللذان يعتبران علم الاجتماع شكلاً من الفن الكلاسيكى أو الرجل الحرفى الكلاسيكى، بينما فى الطرف المقابل نجد هومنز وزيتربرج يكافحان من أجل نظرية رسمية منطقية، ولعبور الفجوة بين الطرفين نجد ميرتون يقدم نظرية متوسطة المدى، التى تحاول ربط الفرد والبناء الاجتماعى عند مستوى الجماعة.

ولذلك يبدو واضحًا أن النظريات الاجتماعية تتباين فيما تركز عليه كل منها سواء من ناحية مستوى الدراسة «وحدات صغرى أو كبرى» أو رسميتها أوخصائصها. ويمكن تلخيص هذا التباين كالآتى:

١- رسمية ولارسمية Formal- InformaL:

قد تكون النظرية من النوع العلمى الرسمى ذات البناء القائم على افتراضات علمية، أو قد تكون لا رسمية ونسبيّاً ليس لها بناء ذى افتراضات متعلقة بالحياة اليومية، النظرية الرياضية، والنظرية فى العلوم الطبيعية تميل إلى التطابق مع النمط الأول، بينما النظرية ذات الافتراض الوحيد والأيديولوجية تقع فى الفئة الثانية.

٢- وصفية- تفسيرية Descriptive- Explanatory:

هناك نظريات يسودها الوصف، وينقصها نموذج تفسيرى واضح، أو أنها تركز على وظيفة التفسير وتم بناؤها طبقًا لذلك، وإن كانت النظرية الوصفية قد تتضمن تفسيرًا، إلا أنها تفشل فى تقديم أى تفسير إذا كان نموذجها الأساسى غير موجود أو غير واضح.

٣- أيديولوجية- عملية Ideological-Scientific:

محتوى النظرية قد يسوده أيديولوجية، أو أن يوجهه منهج علمى مع تركيزه على صياغة افتراضات تكون قابلة للاختبار التجريبى، وإن كان هذا التمييز هو مسألة درجة «ذلك لأن الطريقة العلمية قد تتضمن عناصر أيديولوجية».

إلا أنه من المهم تحديد الأهداف الـرئيسية للمـنظر من أجل تقدير القيم القـابعة وراء العمل، ويلاحظ أنه لانظرية فى علم الاجتماع كاملة الموضوعية مهما بدا أنها موضوعية، إذ أنها دائما تتضمن عناصر أيديولوجية وإن كانت ضئيلة.

٤- ذاتية- موضوعية Intutitive- Objective:

تختلف أيضا النظريات فيما تدرسه من معارف ذات صفة ذاتية ويقابلها المعارف الموضوعية والخارجية، يدرس النوع الأول الأسـاطير والظواهر الشاذة بينما يتمسك العلماء بالنوع الثانى. فى علم الاجتماع يتضـح هذا التمييز بين الوظيفيين البنائيين من ناحية، وعلماء السلالات البشرية من ناحية أخرى.

٥- استقرائية- استدلالية Intuctive- Deductive:

قد تحاول النظرية التحـرك من الخاص إلى العام أو العكس. ويسمى النوع الذى يتحرك من الخاص إلى العام بالنظريات الاستـقرائية، أما التى تتحرك من العام إلى الخاص فتسـمى استدلالية. فى علم الاجتـماع تميل معظم النظريات إلى أن تكون استدلالـية إذ تسخدم العـام «مثل النسق الاجتمـاعى» على أنه المتغير المسـتقل فى أسلوب شرحهم، بـينما معظم نظريات علم النفس وعلم النفس الاجـتماعى تميل إلى أن تكون استقرائية.

٦- الوحدات الصغرى- الوحدات الكبرى Microscopie- Macroscopie:

وتختلف أيضا النظريات من ناحـية مستواها التحليلى، فـقد تركز النظرية على المستوى الخاص والفردى فيصبح مـجال دراستها ضيقًا Microscopic أو تركز على العام والمجتمـعى فيصبح مجال دراستـها واسعًا Macroscopic فى علم الاجتماع تميل النظريات إلى التركيـز على الوحدات الكبرى. بينما التفسيـرات السيكولوجية تركز أكـثر على الوحـدات الصغرى، ويلاحـظ أن كل مستـوى منهمـا له مميزاته ومشـاكله. والملاحظات التى يمكن ذكـرها فى هذه العجـالة هى أن النظريات التى تركز على الوحدات الكبـرى تصبح عامة جداً إلى درجة قـد تصل إلى عدم قدرة الشرح للظواهر الفردية، بينما تعانـى النظريات التى تركز على الوحدات الصغرى من المشكلة العكسية أى قد لا تستطيع شرح الظواهر المجتمعية.

obeikan.com

٧- بنائية- وظيفية Structure- Functional:

وأيضا تختلف النظـريات من حيث ماتهتم به، فبـعضها يركز على تفـسير بناء الظاهرة، بينما نظريات أخرى تهتم بالحالة التى فيها تتطور الظاهرة. فمثلاً فى علم الاجتماع النظريات البنائية الوظيفية تهـتم ببناء مجتمع معين فى مفاهيم من وظائفه الرئيسية، بينما نظريات الصراع تركز أكثر على ديناميكيات المجتمع.

٨- اجتماعية- طبيعية Social- Naturalistic:

وتختلف النظريات أيضا من حيث الظواهر التى تستخدمها كعوامل تفسيرية. فبعض النظريات تسـتخدم متغيرات بيـولوجية أو طبيعيـة، بينما نظريات أخرى تركز على الظواهر الاجتماعية، فمثلاً قد يذهب عالم اجتماع إلى شرح وتفسير السلوك الاجتماعى فى مفاهيم ومصطلحات البيولوجيا البشرية كما فعل هربرت اسبنسرH. Spencer وتلك هى النظرية الطبيعيـة. بينما يذهب علماء آخرين إلى تفسيـر السلوك الاجتماعى فى مفـاهيم ومصطلحات جغرافـية وتلك أيضا نظرة طبيـعيـة. ولكن هناك أيضا علمـاء اجتـماع لايستـخدمـون فى تفسيـر السلوك الاجتماعى إلا مفاهـيم من خـصـائص النسق الاجـتـماعى مثل تقيسـم العمل أو مستوى التصنيع، وتلك هى النظرة الاجتماعية. وهكذا نرى أن هناك نظرتان مختلفتان تمامًا فى أسلوب كل منهما فى التفسير.

من ذلك يتضح أن النظريات الاجتماعية تختلف فى صفاتها.

***

obeikan.com

أنماط النظرية

من المناقشة فى الفقـرة السابقة نستطيع أن ننشئ تنميطًا نحـاول فيه أن نبرز أهم الأنماط السائدة فى عصرنا.

١- فلقد رأينا النظريات تختلف من ناحية مسـتوى الدراسة بمعنى من ناحية اتساع مجال دراستها أى تركز على الوحدات الكبرى Macroscopic approach

أو يضيق مجال دراستها فتهتم بالوحدات الصغرى Microscopic approach .

٢- ولقـد رأينا أيضا أن النظـريات تختلف فـيـما تتـخذه من عـوامل Factors كأدوات تفسيرية. فلقد رأينا أن منها ما يتخذ العوامل الطبيعية أو البيولوجية naturalistic- biological، ومنها من يتخذ العوامل الاجتماعية Social.

٣- وكذلك رأينا أن النظريات تختلف من حيث اهتمامها وتركيزها على البناء الاجتماعى Social strucure أو تركيزها على العمليات الاجتماعية Social process.

٤- ولقـد لاحظنا أيضا أن النـظريات التى يتسع مـجـال دراستـها أى تركـز على الوحدات الكبرى هى عادة استدلالية deductive فى شكلها بينما النظريات التى يضيق مجال دراستها أى تهتم بالوحدات الصغرى تميل إلى أن تكون استقرائية.

٥- وكـذلك يلاحظ أن النظريات التى تركـز على الوحـدات الكبـرى مـثل البناء الاجتـماعى تميل إلى أن تكون ذات نزعـة محـافظة فى أيديولوجيـتها، بـينما النظريات الأخرى مـن ذات المستوى فى التـحليل ولكن تركز على العـمليات الاجتماعيـة مثل الصراع تميل إلى أن تكون أكثر تطرفًا فى أيديولوجـيتها. أما النظريات ذات المجال الضيق فى الدراسة أى التى تركز على الوحدات الصغرى هى بصفـة عامة محافظة فـى تركيزها على المنهج العلمى، ومن ناحـية أخرى على الظواهر الوظيفية عند مستوى التفاعل بين الأشخاص.

الآن يمكننا أن نتجه إلى وضع تنميط يتكون من ثلاثـة أنماط رئيسية، وكل منها ينقسم إلى نمطين فرعيين حـسب العوامل التى يستخدمها النمط كـأدوات تفسيرية،

obeikan.com

أعنى. أن كل نمط من الأنماط الثلاثة يعتمد إما على عوامل طبيعية أو عوامل اجتماعية كأدواته التفسيرية.

ويمكن بيان الخصائص الأساسية لكل نمط من هذه الأنماط الرئيسية الثلاث كالآتى:

١- النمط العضوى- البنائى- الوظيفى:

Organic- Structure Funcional Type

ينظر هذا النمط إلى المجتمع على أنه نسق ذو أجزاء متربطة وظيفياً. والشكل الأول من هذا النوع تلك الدراسة العضوية التى تعتبر أن هناك عددا من القوانين الطبيعية تتفاعل فى المجتمع بأسلوب ميكانيكى عضوى.

والشكل الثانى للدراسة العضوية هى النظرة إلى المجتمع على أنه كائن عضوى Organism، ويبدو ذلك واضحًا فى كتابات دوركيم Durkhiem وتونيز Tonnies ومن شايعهم هؤلاء العلماء يعتبرون المجتمع عضوى يعتمد على نسق تقسيم العمل والذى بدوره مرتبط بأنواع من المعايير أو الإرادة الاجتماعية التى تربط الفرد بوضعيته الاجتماعية، هذه الدراسة تركز على الناحية الاجتماعية أو النسقية أكثر من الظواهر الطبيعية.

ولكن كلا من الشكلين يعتبر عضوى فى نظرته إلى المجتمع على أنه نسق عضوى متكامل Integrated organinism.

ويعتبر النمط الوظيفى البنائى هو الاتجاه المعاصر للاتجاه العضوى السابق والذى كان الخطوة الأولى فى هذا النوع من الدراسة. ويركز هذا الاتجاه الحديث على أسلوب يعرض النسق الاجتماعى على أنه يتضمن عددًا من الوظائف الهامة

أو المشاكل المجتمعية التى أمكن حلها اجتماعياً عن طريق تطور عدد من الأنساق الاجتماعية الفرعية.

ويلاحظ أنه بصفة عامة تتجه النظريات العضوية- البنائية- الوظيفية إلى محاولة صياغة مفاهيم عن المجتمع على أنه نسق عضوى متكامل سواء عند مستوى تحليل الوحدات الصغرى أو الوحدات الكبرى. وتعتبر المجتمع نسق يتطور نحو مزيد من التكامل الاجتماعى، ومزيدًا من الكفاءة الذاتية.

obeikan.com

وهذه النظريات لها جـذورها فى فلسفة عـصر التنوير، ثم زادت دقـتها شيـئًا فشيئًا، أولاً بتـلك المناظرات البيولوجية التى كانت أساس النظرية الاجـتماعية فى أيامهـا الأولى، ثم انفصلت شيئًـا فشيئًـا أيضا ولكن احتفظت فى طيـاتها بفكرة النسق وبنائه من أنسـاق فرعيـة تتكامل وظيفيّـاً وتترابط عضـويّاً وهى الفكرة التى نشأت أولاً فى العلوم البيولوجية.

٢- نمط الصراع والتطرف Conflict- Radical:

نظريات الصراع مثلها مثل العضوية والبنائية الوظيفية من ناحية أنها تركز على النسق الاجتماعى، ولكنها ترى أن الصراع يسود النسق الاجتماعى أكثر من التطابق والتكامل، إذ أنه أثناء صراع الأفراد مع الطـبيعة لإشباع حـاجاتهم الأولية تظهر أنواع مـختلفة من أشكال الصراع التى يعتبرها أصحاب هذا الاتجـاه أنها أساس النسق الاجتماعى وأساس تطوره. وهكذا يصبح النظام الاجتماعى فى حالة صراع وتطور دائم.

تظهر دراسة الصراع الكلاسيكية فى أعمال كارل ماركس، الذى استخدم المنهج الجـدلى المادى Deialictical materialism لتـحليل تاريخ الصـراع البـشـرى مع بعضـهم البعض من ناحية أخـرى مع الطبيعة. وقـد حاول روبرت بارك Robert park دراسة المشـاكل الاجتماعـية التى درستـها نظريات الصراع واستـخدم فى ذلك إطار عـمـل إيكولوجى Ecological framework حـاول به دراسـة التطور الطبيعى للمجـتمع، أما فلفريدو بارتو Vilfredo pareto فقد كان أكثـر ميلا نحو استخدام العوامل الطبيعية، ومثله ثورستين فبلن Thorestien Veblen، فكل منهما استخدم أفكارا مثل الرواسب Residues والسمات الإنسانية Hums Lraits لشرح التوازن والصراع الاجتماعى.

أما نظرية الصـراع المعاصرة أى فى شكلها الحـديث، فهى تحاول تحسـين وإضفاء مزيدا من الدقة على النظرة الماركسية من أجل جعلها تتناسب مع فهم المجتمع الصناعى الحـديث ومـشاكلة، ومـن هؤلاء العلمـاء الذين يحـاولون ذلك رالف داهرندورف Ralph Dahrendorf الذى وضع نظرية حـول صـراع الجـمـاعـة group conflict، وكذلك لويس موزر Lewis Coser فى دراسته لوظيفة الصراع الاجتماعى.

وهناك تطور حـديث آخر لنظرية الصـراع فى علم الاجـتماع المـعاصر حـيث أدمـجت فكرة الصراع فى أفكـار النظرة الراديكاليـة عند تشارلز مـيلز C.Wright Mills، الذى اشتهر بمحاولته تنمية نظرية أكـثر تطرفا، بينما دافيد رايسمان Dsvid Riesman وضع أساسًا ديمـوجورافيا للصراع الاجـتماعى والتغـير فى شكل ثلاثة أنماط من الإلزام الاجتماعى.

فنمط الصراع والتطرف يعتبر المجتمع نسـقًا من القوى المتصارعة ينبثق من صراع الأفراد عند محـاولتهم إشباع حاجـاتهم الأولية وبالذات الحاجات الطبيـعية. وهذه النظرة فى استخدامها سواء للعوامل الطبيعية أو الاجتماعية فى التفسير، تشبه النمط العضوى البنائى الوظيفى فى صياغتها مفاهيم عن المجتمع كنسق من وحدة كبرى إلا أن كلًّا منهمـا يختلف عن الآخر، بل وتناقض الأخرى، فنظريات الصـراع تفترض المجتـمع نسق يركبه الصـراع، بينما النظريات البنائيـة الوظيفية تـركز على التكامل الاجتماعى، وذلك يرجع إلى اختلاف ما تتضمنه كلا منهما من أيديولوجية.

٣- النمط السلوكى الاجتماعى:

يعتـبر هذا النمط عكـس النمطين السابقين، فـهذا النمط يعـمل عند مسـتوى الوحدات الصـغرى والعلاقـات الشخصـية المتبـادلة، ويعتـمد فى تفسـيرها على الاستقراء inductive أكثر من الاستدلال deductive، وهى بصفة عامة تنظر إلى المجتمع من خلال الفـرد، أكثر من اعتبارها المجتمع كنسق من الأمـور الوظيفية، فهى تركز على البـيئة الاجتمـاعية وعلاقة الأفراد بهـا خلال النشأة الاجتمـاعية، والدور، والتبادل، وأداء الدور، وتعريف الشخص للحقيقة.

ويتضـمن النمط السلوكى اسـتخـدام كل من العوامل الاجـتمـاعية والـعوامل الطبيعيـة كأدوات للتفسير، فمثـلاً ماكس فبر Max Weber وجورج ميد Goerge Mead، درسا الفرد كنتاج للمجتـمع، وركزا على معنى السلوك الاجتماعى وعلى عمـليات التـفاعل المتـبادل الاجـتمـاعى، وفى الطرف المقابل نجـد جورج سـمل Goerge Simmel، ووليم سمنر W. Sumnsr، استخدما غـرائز ورغبات الإنسان لتفسير البناء الاجتماعى وتطوره.

ظروف التنظير

غنى عن البيان أن التـنظير لا يوجد فى فراغ بل بالعكس هو يتم فى مـجتمع له خصائصه، فإذا كانت عملية التنظير Theorizing هى العملية التى يفسر بها ويعلل ويشرح الأفراد بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية، فإنه من المهم جداً ملاحظة أن التنظير يحدث فى داخل متن وضعية اجتماعية معينة، أى أن التنظير محدد من قبل تاريخياً وأيديولوجيا، ويزداد هذا التحديد تأثيراً فى مـجال النظريات الاجتماعية، وهـذا ما يسميـه بعض علماء الاجتماع بالقـهر الأيديولوجى. وهكذا تشرح النظرية الحقـيقة الاجتماعية لأصحاب هذه الوضعية الاجتماعية. وتتشكل هذه الوضعية الاجتماعية من الخصائص التاريخـية والأيديولوجية وحالة المعرفة فى المجـتمع وفضلاً عن ذلك فإن الخبرات الحـياتية للمنظر تحدد اتجاهاته الأيديولوجية والمـعرفية التى بدورها تؤثر فى صياغته للمـفاهيم عن الحقيقة الاجتمـاعية. وهكذا فى ظل هذه الظروف تقدم النظرية تفسيرا للحقيقة والواقع، لذلك رأيت بيان وشرح تلك الظروف وهى:

١- الظروف الاجتماعية:

فى مـعظم الحالات تنمـو النظريات كـرد فعل للتـغيـرات فى المجتـمع وتطور حاجاته. وهكذا يمكن القول أن علم الاجتماع قد تأسس فى أوربا أثناء فترة تتميز بالقلق والثورات. والنظام والاستـقرار كمطلب اجتمـاعى كان هو رد فعل للتطور الاجتمـاعى مثل التصنيع، والبيروقـراطية وحاجات الرفاهيـة والانفجار السكانى، بمعنى أن النظرية الاجتـماعيـة تنشأ كرد فعل لظروف اجـتماعـية معينة، وخـاصة الثورات الديـنية والسيـاسيـة، والتغيـرات الاقتـصادية، وتأثيرات التـصنيع، ونمو العلوم.

ذلك يعنى أنه يمكن النظر إلى النـظرية على أنها رد فعل أو مـتغـير وصيـاغة للمفـاهيم عن المشاكل الاجـتمـاعية الحـادثة فى المجتـمع كما يتلقـفهـا عدد من الأكاديميـين المتخصصـين، ومن ثَمَّ تظهر أنواع معينة من النظريات عـند مختلف المراحل من تطور المجتمع.

وهكذا يمكن القول أن النظرية البنائيـة الوظيفية قد حـدثت كرد فعل للاضطراب الاجتماعى والاقتصادى، بمعنى أنها تمثل اسـتجابة للحاجات الاقتصادية فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٣٠[١]. بينما النظريات المتطرفة Raducal يمكن اعتبارها رد فعل لأنواع التسلط التى بدت مـصاحبة للمـستويات العاليـة من التصنيع والبيـروقراطية. وأيضًا أثرت ظروف الحرب فى نمو نظريات التكنولوجيا ونظريات الاختراع.

وعلى هذا يمكن النظر إلى النظرية كوظيفة لظروف اجتماعية معينة، ومن ناحية أخرى تمثل النظرية رد الفعل الرئيسى لعلم الاجتـماع فى مواجهة حاجات وظروف اجتماعية معينة، وإذا كانت هذه الظروف الاجتمـاعية تتضمن الحاجات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فإن من أهمها درجة نمو العلم.

٢- حالة المعرفة وقيمها[٢]:

تعتبر حالة المعرفة وقيمها السائدة انعكاسًا لمختلف مراحل حركة المجتمع، وتؤثر بشدة كبيرة على درجة نمو العلم فيه. وعلى هذا تعـتبر النظرية وظيفة لحالة المعرفة وقيمها ومعاييرها السائدة.

ذلك أن مدى انتشـار المعرفة فى بيئـة المنظر وفى عصره تسمح بطرق مـختلفة ومتنوعـة للبحث، إذ تتـعلق مسألة إمكانيـات منابع التنظير بالـتصورات العـقلية للمنظر. وهنا قـد يكون أفق المنظـر وفكره محـددًا بالمعـرفة المـوجودة فـقط فى مجتـمعه، أو ربما تمتد إلى ما وراء ذلك لتـشمل المعارف الموجودة فى مجتـمعات أخـرى. ومن ثَمَّ يمكن القـول أن سـهولة وامـتـداد الاتصـالات تؤثر فى تراكم الأفكار، ولهذا فإن المجتمعات المفتوحة فكريا تساعد على تراكم الأفكار مما يؤدى إلى زيادة إمكان عمل نظريات جديدة، والعكس صحيح بمعنى أن المجتمعات التى تتضـمن قيمـا لا تشجع الحرية الـفكرية وتشجع التكتم والسـرية أو تقطع سريان المعارف، أو تجعل من التـساؤل عن المعارف حقّاً خاصّـاً للقلة المختارة، كل ذلك

---

(١) لمزيد من الشرح فى هذه النقطة يمكن الرجوع إلى:

Gouldner, A.W.: The Coming Crisis in Western Sociology. Avon, New York, 1970. P.P. 141-157.

(٢) لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى كتاب «التغير الاجتماعى» للمؤلف من ص ١٧٤- ١٨٣.

يحد من أفق المنظر مما يؤدى إلى عقم المجتمع وتخلفه. إن مجموعة من الظروف ربما تكون عظيمة التشجيع على التعلم من ظروف أخرى، فهذه الظروف المشجعة تكون أكثر ملاءمة لنمو الثقافة والاختراعات، ومن بين الظروف الهامة للاختراع، زيادة ما يعرفه الفرد حاليًا، وسهولة تعلم شيء أكثر. ولهذا ترجع نهضة أوربا فى العصر الحديث إلى تخلص المجتمعات الأوربية من حجر الكنيسة على عقول المفكرين حيث كانت الكنيسة لا تشجع على التجديد سواء فى العلوم الطبيعية والاجتماعية بل كانت تقاوم ذلك بشدة، حتى أنها أعدمت جاليليو لأنه قال إن الأرض كروية وهم لا يجدون ذلك فى كتبهم المقدسة، وتبع هذا التخلص من حجر الكنيسة اتجاه إلى ترجمة التراث الإسلامى واليونانى والرومانى، مما أدى إلى انفتاح المعرفة فى أوربا على معارف جديدة لم تكن متاحة من قبل.

ويلاحظ أن أسلوب التفكير السائد عند نقطة معينة من نمو المجتمع يعمل على تجديد نوع النظريات التى يمكن أن تنشأ فى ظله. ولهذا تأثرت معظم النظريات الاجتماعية المبكرة بفروع معينة من الفلسفة مثل الفلسفة الطبيعية مثل نظرية هربرت سبنسر، وفلسفات عصر النهضة وعصر الإصلاح كنظرية أوجست كونت، وعكست تلك النظريات نظرات خاصة عن الإنسانية والمجتمع.

ولهذا عندما نمى العلم فى تزاوجه مع المذهب العملى Pragmatism فى أوربا والولايات المتحدة، ابتدأت النظريات تأخذ أشكالاً مختلفة، كما هو مشاهد فى التركيز الحالى على النظريات الرياضية، وبناء النظريات العلمية، أكثر تجريبيّاً منها عما كانت عليه فى النصف الأول من القرن العشرين.

وبصفة عامة يعتبر علماء علم اجتماع المعرفة أنه كلما تقدم مستوى التصنيع فى المجتمع، تتحرك أساليب التفكير بعيداً عن التفكير الفلسفى إلى التفكير العلمى والتجريبى، وذلك ينطبق بصفة عامة على المجتمعات الغربية.

٣- الظروف الحياتية للمنظر:

هناك عدد من النواحى الخاصة بحياة المنظر التى تؤثر على نوع النظريات التى ينشئها. وتلك تتضمن الموقف الاقتصادى الاجتماعى للفرد أو ما يحب بعض

علماء الاجتماع أن يسميه الموقف الطبقى، وكذلك تدريبه الأكاديمى ونظرته الأيديولوجية، وحياته الشخصية ورفاقه من العلماء.

وهكذا يمكن القول أن عالم الاجتماع من الطبقة العليا، ولديه مستوى عال من التعليم والتدريب ويعتبر نفسه من الصفوة يركز اهتمامه على التطور الاجتماعى والضبط الاجتماعى، ومن ثَمَّ يميل إلى أن يكون ذو أيديولوجية محافظة ويتبنى نظريات عضوية وبنائية وظيفية. وبالعكس ذلك الذى من طبقة متوسطة أو منخفضة وتدريب أقل يميل إلى الأيديولوجية المتطرفة. فالخبرات الشخصية للمنظرين تجعلهم ينتبهون ويركزون اهتمامهم على نواحى معينة من الظواهر الاجتماعية وهى بدورها تؤثر على تنظيرهم.

ويلاحظ أننا ذكرنا التدريب العلمى ولبيان أهميته يمكن القول أن المجتمع قد يشجع على التدريب ويبذل بسخاء فى سبيله أو قد لا يشجع ويقتر. ويقول أوجبرن ونمكوف: (إنه فى السكان من نفس الجنس هناك عدد كبير من الأشخاص يرثون الكفاءة الكافية ليكونوا مخترعين. وبالرغم من ذلك فإن عدد المخترعين صغير، ويرجع الاختلاف إلى حقيقة أن كل فرد من ذوى الكفاءة الموروثة لا يدربوا على الاختراع، ولا المجتمع يشجع الاختراع عند كل من تدرب. وهكذا فى الأنثروبولوجيا، هناك عدد قليل جداً من البحاث الذين يصلون إلى اكتشافات علمية. وإن كان هناك عدد كبير من الأشخاص الوارثين لقدرات عقلية كافية، ولكن ما يخفض العدد هو الوقت والمال المطلوب لإنتاج دكتور فى الأثروبولوجيا[1].

كما أن تأثير وتشجيع رفاقه من العلماء له أهمية كبرى أيضًا. فالجماعة الأكاديمية تمثل ثقافة فرعية ذات تأثير بالغ، وأهمها ما تتضمنه هذه الثقافة الفرعية من قيم تحض على العمل التعاونى والمشاركة فى المجهودات بين الزملاء الأكاديميين والمفكرين أو عكس ذلك. وفى الحقيقة أن (إمكانية نمو فكرة جديدة تكون عالية وعظيمة إذا أظهر عدة أشخاص تلقائياً وتعاونياً نفس الإمكانية، مشاركة المجهودات فى العمل لا توفق فقط بين تكاثف الأفكار لعديد من الأفراد،

(1) Ogburn and Nimkoff: "A hand Book of Sociology" Roulidge and Kegan Poul. London. 1953. P. 546- 547.

ولكنها أيضًا تزيد من فرص احتمال وصول أحدهم إلى حل لمشكلتهم العامة. وأكثر من ذلك فإن تأثيرهم المتبادل على بعض يحرك التبادل والمشاركة فرؤية عمل مشترك واحد يصبح قوة محركة ودافعة لأفكار جديدة عند الآخرين وأيضًا يساعد تكاملهم التفكيرى على إمكانية الحل، ذلك أنه فى كثير من اللحظات تتطلب المشاكل المعقدة الكثير جداً من التجارب، وتحتاج إلى مناهج كثيرة للبحث والتجريب، ولا يمكن لفرد واحد أن يواجه كل هذه المتطلبات. فالمشاركة فى العمل ليست ظاهرة طبيعية، إذ أنها لا توجد عشوائيّاً أو بيولوجيا، إنما هى تأثير وتنميط ثقافى[1]. وهكذا فبيئة الجامعة كبيئة معرفية قد تساعد وتشجع أو تحبط وتقيد نمو النظريات الاجتماعية من خلال نوع القيم التى تسود هذه الثقافة الفرعية.

ولهذا فقد تأسس مفهوم أن النظريات العلمية تصنع داخل الجامعات وتذاع عن طريق نشرها فى الصحف الأكاديمية، ومن هنا تبدو أهمية الجامعات فى التأييد المعنوى والمادى للمفكرين لاستمالتهم نحو بذل الجهود فى البحث وصنع النظريات التى تخدم المجتمع.

وبناء على ما سبق عرضه من أفكار حول الظروف الاجتماعية المحيطة بعملية التنظير، يمكن القول أن عملية التنظير تؤثر فيها عوامل اجتماعية كثيرة وكذلك عوامل معرفية متعددة، وعوامل حياتية، كما أنها تمثل مرحلة معينة من تطور المجتمع، ومن ثَمَّ يمكن القول أن عملية التنظير هى عملية اجتماعية أكثر منها عملية فردية.

●●●

(1) Barnett, H.G.: "Innovation" McGrow-Hill Book Comp Inc. N.Y. 1953. P. 14-43.